زمن ميّت في عقارب الساعة

محمد ابراهيم الحاج صالح

كنّا نجلس على حرْف الرّصيف صامتيْن. وكان يرتجف بين لحظة وأخرى وينفخ في يديه وهو يلفظ «أحْ حُوُ..». كنتُ أعرف أنه لن يصبر دون أن يبدأ بالكلام. وكنتُ أُمعن في الصمت، ناظراً إلى تمثال الفلاّح والفلاّحة يحملان مشعلاً منطفئاً، وتحت أقدامهما بمترٍ واحدٍ كانت ساعةُ المدينة مُتوقّفة. تساءلتُ عن الزمن الذي تعطّلتْ فيه، وقدّرتُ أنّها لم تعملْ إلاّ أشهراً جمدتْ بعدها عقاربُها على الساعة الثامنة والنصف، وظلّ النورُ خلف مينائها صالحاً ينوِّر زمناً واقفاً في العقارب. قال فجأةً: والعمل؟!

ولّما رأى أنْ لا رغبة بي في الكلام. قال: ما بك اليوم؟!

قلتُ: بي الذي بكَ وبالنّاس وبالحيوانات وبالفلاّح والفلاّحة وبعقارب الساعة المتوقّفة.

ـ أَللَّه... أَللَّه. إمّا أن تسكت كالميّت أوْ تنطق بالكلام الكبير! خلّنا نشوف حالنا وندبّر أمرنا.

نبرْتُ مُنفعلاً: حَنَثْتَ؟! أَلَمْ نحلفْ على القرآن أننا لن نشرب؟

ـ أَللَّه.. بركاتك شيخ!.. كأننا ما حنثْنا مرةً من قبل!

ـ أُفٌ.. يا أخي.. رُحْ دبّرْ رأسك واتْركني لحالي.

ـ الذي يسمعك يقول إنّك لست الذي كرع عرق التمر كرْعَ الماء في حانة الآشوري ببغداد.

لكزْتُه بكوعي في خاصرته وأنا أحسّ بحنينٍ مُدوّخٍ إلى شَفَّةٍ واحدة. فبادلني لكزة بلكزة: إي... هَهْ. تذكُرْ وذكّرني.

ـ صحبتك صحبة شياطين... انظرْ إلى الناس. إلى منْ همْ بعمرنا... أولاد وبيت ومال... وأنا وأنت على باب الله..

ـ وهل حياتهم حياة؟!

نظرتُ إليه أريد أن أكله لهذا الادّعاء السخيف الذي يغمرنا بسعادة مكذوبة تأتينا من سُكْرٍ لا نهاية له، فنظنّ أنّنا وحدنا نعيش سعيديْن، وأمّا الآخرون فمهابيل يجرون وراء مالٍ لن يأخذوه معهم إلى اللحد. منْ قبل، كان المالُ يأتي عَرَضاً، منْ شغلنا، منْ أهلنا، من أصدقائنا. أمّا الآن فمن أين يأتي المال ونحن عاطلان، لا شغْل ولا مشْغلة، وكلُّ منْ حولنا سئم منّا وما عاد أحدٌ يخجل من رفض إقراضنا؟ فنحنُ نعرف، ومنْ نطلب منه يعرف، أننا لن نردّ الدَّيْنَ.

تركْنا المدرسة أنا وهو، وتعلّمنا في سوق الهال التحميلَ والتنزيلَ، وذُقْنا طعمَ أن يكون للإنسان مالُهُ الخاصُّ الذي يَصْرف منه على هواه. دخنّا باكراً. شربْنا باكراً. وعرفنا مذاقَ النساء عندما كان منْ هُمْ في عمرنا أصغرَ منْ أن يقولوا للواحدة: «يا حلوة!». ولّما كبرنا اشتغلْنا على الشاحنات بين المحافظات وبين الدول، إلى أن كَثُر السائقون وشحّت السفراتُ، فوجدنا أنفسنا ننزلق شيئاً فشيئاً إلى العوز.

كان عزُّنا في عام ١٩٧٨ عندما كانت سورية والعراق سَمْناً على عسلٍ، نمضي يوميْن على الطريق ونسكر بقيّة الأسبوع في الحانات والفنادق مع منْ نعرفهم ومنْ نتعرّف عليهم. في الليل أصحابنا كثرٌ: فالسكّيرون كثيرون... وفي النهار ننْفرد ذئبيْن جائعيْن للطعام وللنساء.

في أوّل سفْرةٍ لنا إلى بغداد ـ والدنيا في أواخر أيلول، وخريفُ بغداد هجيرٌ في النهار، طريٌّ عذْبٌ في الليل، ونحن الاثنين لا نعرف من بغداد إلاّ اسمها ـ سألْنا سائقاً من أهل البلد عنْ مكان نشرب فيه، فتبسّم بسْمة الأُخوّة التي لا نخطئها في الندُمَاء، وكتب لنا على ورقةٍ اسمَ الحانة ومَوْقعَها، ثمّ أوقف لنا سيارةً وأوصى سائقها بنا هامساً بأذني: «لو ما كنتْ مشغولْ رحتْ معاكمْ... مْبيّنْ صحبتكمْ ونْسة».

كان سفراً آخر على طول بغداد الوسيعة إلى قلبها المفعم بالرطوبة والطوب. ومنْ نوافذ السيّارة كانت الأرصفة والأبنية والأشجار تمرّ بعيوننا كأنما لنتفرّج عليها وحدنا... همس صاحبي على كتفي محاذراً أن يسمعه السائق: «يا إلهي أرأيتَ عيونَ البغداديات؟... يذبحن بسوادهنّ». حدّقتُ إلى عينيه ألومه لومَ منْ يقول: «وهلْ يفوتني مثلُ هذا الذّبح؟».

عند أوّل الزقاق نزلنا. هبطنا بضع درجات، ثمّ مشينا إلى جنْب الدُور التي مصّ طابوقَها رطوبةُ الأرض فتزنّرتْ حيطانُها باللون الداكن في أسفلها، بينما ظلّ أعلاها ناشفاً زاهياً في شرْقة شمس المغيب المنبعثة على آخر نفثة قبل الغياب. فجأة، انْفسح الدجلةُ أمامنا بحراً ملوّناً بالأحمر والأصفر والأزرق المترمّد، وأوّلُ أضواء الشوارع تلتمع متعمّقةً في جوفه. «اللّه... مشهدٌ يفتح القلب..» لفظتُ منبهتاً. قال وكأنه يبتهل: اتركهمْ للمال وللأولاد، وأدخلنا إلى جنّة بغداد.

فخمّنتُ أنّه يَعْطف على كلامنا الذي قلناه ونحن ننتظر تفريغَ الحمولة، عندما استعرضنا ما آل إليه أصدقاءُ طفولتنا الذين أخذتْهم الحياةُ إلى الاستقرار وإنجاب الأطفال

والركض خلف الليــرة والدينار. قلت: لماذا تحبّ الحــديث عنهم؟

- لأتيقّن من ضلالهم وهدايتنا!

فضحكنا بصخبٍ مِنْ ضلالهم ومِنْ هدايتنا.

* * *

كانت الحـانة ضئيلةً بنوافذ وطيئة تُلقي على النهـر بقعَ ضوئها كأنها عيونٌ للأسرار المخبّأة في القناني. وكانت ثلاثُ طاولات مشغولاتٍ بالزبائن، فَشَغَلْنا نحن الرابعةَ.

سألَنا النادلُ بلهجته البغداديّة: ها يابا... شتْريدون؟

- عَرَق.

تزاحَمْنا باللفظ.

ومـا إنْ وضـع القنّينةَ والكأسـيْن حـتّى سَكَبنا، ونحن نَنْمـزج بمزاج الشـرب مع اخْـتلاط الماء بالعـرق الصـافي وانقـلاب اللون إلى حليب السبـاع. دفْعةً واحـدة كرعنا أوّل كأس، متعجلين الذهابَ إلى أوّل النشوة، وكذلك فَعَلْنا بالكأس الثانيةِ قبل أن تحطّ يدُ النادل طبقَ الفستق. قال متحبّباً: منينْ الإخوانْ؟

- من سورية.

- يا أهلاً... يا ألف مرحبْ... هلا واللّه... هلا عيني. لكنْ يابا، عرق التمر تراه مُو مثل عرق العنب... يابا، العرق هذا ياخْذونه من التمر... ثقيل. ثقيل. ولُهْ خطفه...

ما كنّا بعد كرْع كأسين على الصافي وبطريقتنا القائلة «كَعْبُه أَبْيَض» لنتراجع، أَوْ لنُظْهرَ فرقاً حاسماً، وإنْ أحسسنا بتسارع النمل في أطرافنا وباللهب المُسْتَعِرِ في جوفيْنا، لأنّنا عزوناه إلى جوعنا. قلت: كلّه عرق.

- لا.. يابا.. عيني، اسمعْ منّي، هذا طَرّاح الزَلَم!

- باطل!

- يابا. أنا ما أريد انتقاصْ بيكْ.

أعدْتُ تعليقي بالنبرة ذاتها: كله عرق.

ومن إحدى الطاولات جَهَرَ صوتُ رجلٍ بشاربيْن أسوديْن كـأنما ليُبعد النادلَ عنّا: مـشروب الإخـوان السـوريين على حسابي.

فحيّيناه آلياً بضمّ الكفّ المبسوطة على الصدر، وبالجملة التي اعتدناها سويّاً: تُشكر يا طيّب.

قال صاحبي: ألا نردُّ على هديته؟

قلت: الردّ الآن يصغّرنا.. لكنْ يمكنك أن تهديهم مـا هو أحلى..

- فهمت... هذي تحتاج إلى توازن.. أمْهلني حتّى يأتي.

- هل هي معك؟

مدّ يده إلى جيـبـه الداخليّ، وأبقـاها هناك وهو يتلمّس ويهزّ رأسه بالإيجاب مراتٍ. وقف النادلُ على رؤوسنا، لصقَ الطاولة. وقال بين الحياء والاعتياد مشيراً عبر الباب: عيني.. تحبونْ تاكلونْ؟

نظرنا إلى حـيث أشـار، فـرأينا بضعَ حـفـرٍ تَظْهـر على جانبٍ كلّ منها قرمٌ متوهّجةٌ تحت غلالةٍ رقيقةٍ من الرماد. ولمّا رأى أننا لم نفهم، قال: سَمَك مسقوف.. عيني. حَيْ.. تختار وتؤشّرْ.

كنّا قدْ سمعنا بالسمك المسقوف، فوافقْنا على الفور. ونهضنا ونحن نرفع كأسيْنا ونجرعهما بكعب أبيض تحيّةً للرجل الذي أهدانا ثمنَ مـشـروبنا، ثم تجـشّـأْنا جـشـأةَ المحترفين، فحيّانا الرجلُ بشفّةٍ من كأسه. تَبِعْنا النادلَ إلى حوضِ ماءٍ يتجوّل فيه السمكُ المنذورُ لهذه الليلة. اتكأْنا على حافة الحوض ورحنا نتفحّص «هذه لأْ.. هذه لأْ.. ولا هذي.. هذه وهذه». قال صاحبي:

- بيده حقّ.

- من؟

- النادل. عرقهم غير عرقنا.

- لا تقلْ إنك سكرت؟

- يعني... قريب منه.

كان الليل في السماء بعيداً. وعلى الأرض كانت بغداد تتوهّج، وصفـحـةُ الدجلة التي باتت بلون الرصـاص تترسّم أضـواءً عميقـةً تتموّج كأنها صدًى لنورٍ سحريٍّ. ومن باب الحـانة التي بدأت تكتظ، كـان لغطُ الزبائنِ يخـرج في دخـان السجائر سحابةً بيضـاء من ضبابٍ نازحٍ ومتلاشٍ على حدود الضوء المنبعث من الداخل.

عدنا إلى طاولتنا، وبلا تهيئةٍ نغّم بالشبّابة لحناً حزيناً يمصّ الروحَ ويطيـر بهـا، فـسكت اللغطُ وهوّمتْ عـيـونُ الحاضرين مع سحابة الدخان تحت السقف.

رأيناهـا على حرف الطريق سـارحـةً بالغنم بلا لثـام عند طلْعة الشمس. وقبل أن نصل إليها بطّأْتُ أنا سرعةَ السيّارة، وعيني لا تزول عنهـا، ومـقـودُ السـيّـارة يتـراقص بين يديَّ، متتبِّعاً حُفَرَ الطريق بخطْفاتٍ تجبرني على الخطْف بالاتجاه المعـاكس، بينمـا كـانت هي واقـفـةً تُحِدّ نظرَها عـبـر البلّور الأمـاميّ كأنها تريد جسَّ وجوهنا. قـال: ذبّاحة هذي العيون. انظرْ.. بنت الحرامْ ما رفّ لها جفنْ... تريد أكلنا بعيونها.

- اللّه يعاونِكْ.

- يا هلا ورحبْ.

- .. الجوعان لُهْ حليب عند شياهِكْ؟

- هلا ورحبْ.

من الخرج أخرجت الطاسةَ وحلبتْ فيها. ثمّ قدّمَتْها لنا، وفي عينيهـا حـذرُ الغزال قبل النفور بلحظات. قالتْ كـأنّها تعرفنا حقّ المعرفة: أنتمْ مهرِّبون؟

ـ نعم.

ـ تهرّبون العمّال؟

ـ نعم.

ـ إلى أين توصلونهم؟

ـ إلى حدود الأردن.

ـ وبعدها؟

ـ ينجازونْ.

ـ يا حرامْ!

ـ النّاس مجبورة.. اللقمة مُرّة.

على بعد خطوات نَغّم على الشبّابة، فسكتْنا أنا وهي، وانتبهتِ الأغنامُ مصغيةً، وسفّ سربُ عصافير ليحطّ بين العشب. كانت الشبّابة تبكي حزناً غامضاً يعتصر القلب ويَصْرفه إلى شيء مُبهم بعيدٍ بعيد. ولمّا انتهى وشبّ واقفاً كأنه ينفضُ آخر ذرّات الحزن، قالتْ: يا مسكيْن!.. إيشْ حاصلْ لكْ؟

وأدارت ظهرها هاشّةً على قطيع الغنم، مبتعدةً خلفه. ظلّ هو واقفاً مبهوتاً ينظر إليها إلى أن ارتقت سفح الهضبة وبدأتْ تغيبُ في سحابة ضبابٍ عابرة. اطلقتُ زمّور السيّارة لأنبّهه، فَنَفَضَ يده ومدّ رأسه من النافذة وبوجهه تعبيرٌ مبهورٌ:

ـ .. لمْ يقلْ لي أحدٌ من قبلُ ما قالتْه هذه البدوية اللعينة!

ـ كلامْ... يا اللاّ... اركبْ.

* * *

حتّى رفْعُ الكأس باليد كان بطيئاً كيْ لا يجرح الأسماعَ المصغية، وحتّى شفّة العرق أوْ مجّة السيجارة كانت تبدو لي رقيقةً هادئةً كي لا تشغل الانتباهَ الذي حلّ في جوّ الحانة المفْعم بالدخان... ولمّا انتهى، قلت: يا مسكين!.. إيشْ حاصلْ لكْ؟

حدجني بنظرةِ مَنْ يلتقط ذكرى منسيّةً قفزتْ فجأةً أمام العينين: لا تذكّرني بها!

صخبتِ الحانةُ، وتقارعتِ الكؤوسُ، وابتسم الجميع ابتسامات ملغزةً كأنهم ينفضون من رؤوسهم ما علق بها من تهويمٍ وحزنٍ، وضجّوا يطالبونه بتقسيمةٍ فرحةٍ. وكان هو يردّ تحيةَ الكؤوس برفع كأسه، ويردّ على رجاءات عزفِ نغم مرحٍ بالقول: «آخر السهرة.. آخر السهرة».. وشيئاً فشيئاً راحتْ طاولتنا تزدحم بقناني العرق المُهْداة. ونسمع بين لحظة وأخرى: بُطُل على حسابي للإخوان السوريين.

لم يعد بالإمكان عَدُّ الكؤوس ولا ضبطُ النفس عن الكلام المتداخل، عندما اختلطت الطاولاتُ وَشَرِبَ الواحدُ من كأس الآخر، وحكى كلٌّ منهم قصصاً مبتورةً عن همومه، فالانتباه سينصرف بعد بضع كلمات إلى عزف العود أو تنغيم الشبابة أو امتلاءِ السمع بالطبلة العراقية الصغيرة. قال مُتَعْتَعَ اللسان بالسُّكْر وهو يمسّ بشفتيه أذني: أتبيع هذه الحياة بحياتهم؟

ـ مَنْ هم؟

ـ أصحابك، أهل البيت والأولاد والمال.

مع السُّكْر كنتُ سأوافقه، لكنّ بقيةً من مناكفة كانت

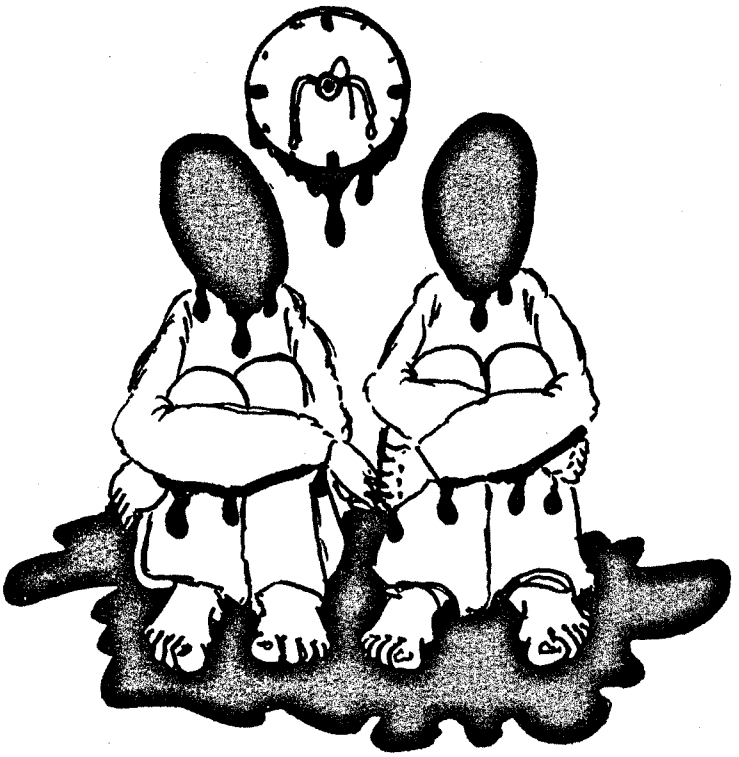

ماتزال تجد لها موضعاً في رأسي. قلت: أبيع.

ـ رُحْ يا... لو ملّكوني الدنيا ما أبيع.

في ثقل الرؤوس ونشوة القلوب بدتْ كلُّ «آآآه» تلفظها الأفواهُ مع تقسيم العود أو عزف الشبّابة ألماً لذيذاً يتطلب جرعةً من الكأس، وصخباً يدلّ على انشغال الجوارح بطلب المزيد. ولولا الرجاء الحارّ الذي رجا صاحبُ الحانة كلَّ واحدٍ منا وهو يلمس لحيته، لامتدّ الشربُ حتى صبح بغداد.

مع المشي بان السُّكْر قيداً في الأرجل. وكنت أُحسّ بنفسي أخطو خطوتيْن متعثرتيْن إلى الأمام، ثم أنخطف خطوةً إلى الجانب، وأترنّح متراجعاً خطوةً. وكان هو بين خطوة وخطوة يقع ويقوم ضاحكاً، ويحاول التصفيق بيديه لكنّ يديه لا تلتقيان، فيقول: العمى... ما ظل شي على شي.

ـ أي شي يا سكّير؟!

ـ.. رأسي ليس على رقبتي، ورجلي بعيدة، ويداي كلٌّ واحدةٍ في طريق...

ـ وعقلك في...!

ـ يعني أنت أحسن!؟.. مشيتك رايحة جاية...

على العشب عند حافة النهر سقط، وبذل جهداً كي يجلس محدِّقاً في النهر، وضحكُهُ يسري مع رقص الأضواء المتكسّرة في عمق الماء.

ـ هذا أحسن مكان في الدنيا.. بلا فندق بلا هوا...

وألقى ظهره على العشب، غاطّاً على الفور بشخيرٍ الداخل في نومٍ كالموت، وكأنّ النوم كان في جيبه.

* * *

قلت: واحد من اثنين: إمّا أنه سيطردنا أمام الزبائن، أو أنّه بعد ترجٍّ ونفاق سيقول لنا أمام الزبائن وبالصوت العالي «هذي المرة وبسْ.. عيبْ استحوا». ويعطينا لكل واحد بطْحة.. يعني شمْ ولا تذقْ.

ـ والثالثة؟!

ـ أي ثالثة؟. لا تضحك على نفسك.

ـ أنت نسيان أنه اليوم ليلة عيدهم.. يمكنْ يحنّ.

عند عطفة الشارع واجهتْنا أضواء حانته الخافتة، فتوهّمتُ أشباحاً لزبائن كثيرين، وأحسستُ أنني موزّعٌ بين صورة يدي المبسوطة وهي تضرب القرآن تأكيداً على تغليظ اليمين «وحياة هالمصحف، وحياة هالمصحف.. لن أشرب بعد اليوم»، وبين الحنين المدوّم في دمي إلى السكْبة الأولى حين يفور اللونُ الأبيضُ في الكأس. تردّدتُ. وبغير جدّ دفعتُه إلى الزقاق المتفرّع.

بإحساس المتّكل على مَنْ يقرّر عنه سرتُ إلى جنْبه، وامتزاجُ الماء بالعرق يفور في رأسي. ومن بعيد كان «حنّا» خلف زجاج الواجهة واقفاً يتكلّم مع أحدٍ لا نراه. وفي لحظة، بدتْ لي كلحظة جبْه مسدّس مهيّإ، نَظَرَ إلينا، وبقي نظرُه مصوّباً نحونا، فتمنّيتُ لو أنّ بي القدرة على الهرب بدلاً من الذلّ الذي سيتلبّسنا ونحن نقف أمامه مصطنعيْن اللباقةَ.

ـ مسا الخير يا أحلى حنّا..

ـ ...

ـ كل عام وأنت بخير. إن شا اللّه السنة الجاية مثل ها الوقت تكونْ تتفتّلْ بكنيسة القيامة.. بالقدس.. إحْنا وإيّاك. واليهود بحْ!!.

قال مُقلِّداً كلامَ المسلمين في الضيق:

ـ لا حول ولا قوّة إلاّ به... مَنْ قال لك إنّي أحب أتفتل بكنيسة القيامة؟ عمي، كنيستنا في البلد بالسنة أشوفها مرة. واليهود، يا عيني، اطّمَنْ، قاعدين!

ـ لا.. لا.. أبداً إن شا اللّه صلاتنا تكون إحْنا وإيّاك بالعيد على هالوقت؛ هناك.

ـ يعني... خلاص. ضحكتوا عليّ وأمّنتوا السهرة على حسابي بكلمتينْ!؟

ـ ولوْ! غايتنا نعايدك.

ـ باللّهْ! عايدتوني خلص.. يعني ماظلْ حجة، وبعدْ..؟

ـ إي هيييهْ. اعزمْنا على شي.

ـ أعزمكم؟! ماظلّ علينا غير هذي..

ـ طيّب.. دَيِّنّا.

ـ ولا هذي.

ـ يا حيفْ.

ـ عمّي.. الدفتر شقّيناهْ. ما عادْ في ديْن. ... ما في أحد غيري بالبلد؟! افرقونا.

ـ طيّب... تراهن ان.. كل واحد منّا يقدر على شرب خمس كيلوات عرق؟

ـ اضحكوا على غيري..

ـ خمسهْ!

ـ يا أخي انقلعوا عني.

ـ يا حيفْ.

ـ حيف... ما.. حيفْ. اعطونا عرض اكْتافكم.. في زبائن.. عيب.

كأنّ ألف عينٍ كانتْ تثقبُنا من الخلف ونحن نخرج خجليْن، رغم أنّ الحانة لم يكن فيها إلا رجلٌ واحدٌ يجلس على كرسيّ واطئٍ من كراسي الحانة وأمامه طاولة صغيرة ليس عليها سوى منفضة سجائر.

ـ أيّ زبائن.. واحد قاعد على منفضة سجائر يساوي لوحده زبائن؟!! اسمعْ.. أنا غير منقول من هنا إلا بعد الشرب.

ـ الرجل طَرَدَنا.

وقفنا على الرصيف المقابل مذلولَيْن ننظر إلى القناني المصفوفة على الرفوف، ونراه يكلّم الرجلَ الوحيدَ في الحانة، وحركةُ يديه تلعب في الهواء بغضبٍ.

ـ .. تراهمْ مذلولين مثلنا؟

ـ من هم؟

ـ العراقيين.

ـ ... أمّا عليك تفاطينْ؟!... ما حدا مذلول مثلي ومثلك.

ـ .. حتّى همْ؟

ـ .....

ـ كأنّه ينادينا.. هل ينادينا؟

ـ بلى.

بلا تردّد اندفعنا إلى الحانة، وابتسمنا له:

ـ معايده ولاّ دَيْن؟

ـ لا هذي ولا هذي.

فجاءنا الصوت الخافت من خلفنا:

ـ أصحيح أنكمْ تستطيعون شرْب خمس كيلوات؟

ـ للواحد.. يعني.. كل واحد يشرب خمسه.

ـ كثير!

ـ راهِنّا!

ـ .. وإذا خسرتم؟.. أنتم مفلسون.

ـ نصير عبيدك.

ـ ما يلزمني عبيد!

ـ نفعل ما تريد.

ـ موافق.

ـ عشرة كيلوات.

ـ عشرة.

ـ مع بسطرما؟

ـ مع بسطرما.

ـ وعلبتين دخان؟

ـ وعلبتين دخان!

تأفف حنّا:

ـ معكم ثلاث ساعات... وبسْ.

ما ألذّه بعد انقطاع، وما أجوع المعدة إليه!! بكعب أبيض جرعنا الكؤوسَ الثلاثَ الأولى، فتزحزح الرجلُ مقترباً بكرسيّه:

ـ كلّ شربكم هيك؟

ـ يعني.. حَسبْ.

ـ هذا شرب ما فيه لذّه.

ـ اللذة تأتي بعدْ.

ـ حرام.

ـ أيّ حرام؟!

وللهروب من الأسئلة، وبالدُّربة التي تعودناها، حَرَفنا الحديثَ إلى التعارف، فعرفنا أنه مزارع يملك حصادات وجرّارات، ثم رحنا نسليه بين الكأس والكأس بالنكت التي أَعَدْناها ألفَ مرةٍ على الطاولة وهو يضحك من كل قلبه كأنه كان محروماً من الضحك قبل أن يرانا. فجأةً، في قمة الانبساط ونحن ذاهبون إلى النشوة التي حَرَمنا منها أنفسنا لشهرين، هبّ واقفاً:

ـ أترككم بعافيه.. اشربوا على كيفكم. وخذوا الباقي إلى البيت... الصحة لا تُعوَّض.

ـ البيت؟ أيّ بيت؟!.. إلا إذا كان قبو سوق الخضرة بيتاً.

راح الرجل يُخرج رزمةَ النقود ويدفع لحنّا، ويضيف بضعَ مئاتٍ وهو يؤشّر برأسه نحونا دون أن ينظر إلينا: «هذه لهم». وحنّا يهزّ رأسه بأسفٍ علينا، وعلى هذا الذي يبذّر مالَه على سكّيرين يعبّان العرقَ كأنه ماء.

عندما غاب الرجل خلف عطفة الشارع حيث الإسفلت اللامع تحت الضوء، قلتُ مع جشأة كبيرة: لن نأخذ مالاً.

فتلفّظ حنا بقرف: بلا كُبْرة نفس... خذوا.

وقعد على كرسيّه خلف البار، صاداً عنا، متلهّياً بالمطر النازل خيوطاً تبرق في ضوء عمود الشارع المنصوب لصْق الحانة. قال صاحبي بصوت عالٍ: حنااا.. وينْ أبول؟

ـ بجيبي.

ـ لا... عن جدْ!؟

ـ يعني... ما تعرف؟

كلّنا نعرف أنّ حانة حنّا ليس فيها مرحاض، فمن حَصَرَه البولُ لاذَ خلف صناديق العرق والنبيذ؛ ليجد إلى جانب المغسلة قِمْعاً لتعبئة المازوت، والقِمعُ مُتْدَخِلٌ بخرطوم من البلاستيك يصبّ في مصرف المغسلة. وعلى المتبوِّل أن يَقبض القِمعَ تحت عضوه، ويصوِّب على الفتحة؛ فأيّ شخْبةٍ خارجها سيشمّها حنّا. ثم عليه أن يَسْكب ماءً بالطاسة المخصّصة في القِمع لإزالة الرائحة وللنظافة.. هكذا يشرح حنّا مضيفاً: «بولكم عرق بعرق. ومعه يأخذ سموم الجسم، فكيف يكون؟ أَستغرب كيف لا تشمّون جيفة البول، مع أنه يقطع الأنف».

قال صاحبي وهو يسحب السحّاب: بُلْتُ ناراً.

نبر حنّا من فوق كرسيّه كأنه يكلّم جام البلور الذي يحدّق فيه: طبعاً تبول نارْ، وبكره تبول دمْ.. هذا شرب حميرْ.

ـ إذا كنّا حمير ونحن نشرب في حانة، فماذا يكون صاحب الحانااا؟

ـ بغل.

ـ لمّ لسانك.

كانت همتنا ستنكسر، لولا أننا بدأنا ندخل في السكْر، ولولا يد حنّا المرفوعة بين دقيقة ودقيقة أمام عينيه الناعستين ليحدِّق في ساعته وهو يَحْسب زمننا. قال هازئاً: خذوا القناني معكم.. خذوا راحتكم بالبيت!

ـ حريمنا ما يقبلن!

ـ ها... حريمْمْكم... أيْوااا.

ـ تتمسخر؟!

ـ لا.. ولوْ.. حدا به عقل يسخر منكم!.. اسمعوا، أعطيكم كيلوين من عندي إذا انقلعتم عني.

ـ أبداً. القضية قضية مبدأ. نحن راهنّا الرجل على عشر كيلوات.. عيب كل العيب إذا نخرنا من العشرة كيلو واحد!

ـ يعني... قاتلكم الشرف؟

ـ طبعاً.. ولوْ!

ـ يلعن أمّك منْ ليله!

ـ ليله من ألف ليله وليله.

بدأنا نغني الأغنيـة كلٌّ على هواه وعلى عـدد الكاسـات التي شربناها، بينما برطم حنّا كأنه سيبكي. نزع الساعة من معصمه وعلّقها بمسمارٍ مدقوقٍ في ردفة خشب الجام، وراح ينقر بإصبعه على البلور وهو يحدّق في الشارع الخالي إلا من خيوط المطر وخرير الماء في المصارف.

عندما قمنا ترنحت الرفوفُ في عينيّ، ورقصتِ القناني. صرختُ بين كفّيَّ: حنّاااا... حاااا نّاااا.

فانتفض حنّا جافلاً من قلب النوم: خلصتوا؟!

ـ أوهوووو.. من زماااان.

ـ يعني من كمْ؟!

ـ مِمْمْمنْ.. نُصْنُصْنُصنْ.. دقيييقه.

ـ مع السلامةْ.

ـ أأأيْ سلاااامه. هاااات الكيلوينْ.

دون تردّد وبغمغمة الغاضب الذي يسبّ ألف مسبة في الدقيقة تناول من الرفّ قنينتيْن، ووضع قنينةً بيد كلٍّ منا، ماسكاً كفي وكفَّ صاحبي وضامّاً أصابعَنا على عنق القنينتين كي لا تسقطا.

ـ مع السلامة.. شرّفتوا.. توكلوا على ربكم.

ـ رْرْرْبنا وووربك وْوْوواحد.

ـ يمكن!

ـ لاااا... واحد غَغْغَصُبْ عنْننكْ.

ـ طيبْ. واحدْ، واحدْ! بسْ افرقوني.

كانت الدنيا تمطر بغزارة، هذا ما وعيناه. وكان الشارعُ يصعد ويهبط، والأبنية تميل على جانبها وتعتدل لتميل إلى الجهة الأخرى في حركة دائمة. قال متعتعاً: سْسْسْكرنا.

وسَقَطَ على حدّ الرصيف، متمدداً بلا حركة، والماء يجري بجانبه، مرةً إلى الأعلى ومرةً إلى الأسفل. وكنتُ أنا أميل إلى الأمام حتى ألمس الأرض، ثم أقف مرتعشاً، محاولاً ألاّ أسقط. انتظرتُه، لكنه لم يقم. انحنيتُ عليه فوقعتُ فوقه، ثم تزحزحتُ عنه وتلمّستُ وجهه لأقول له «.. قمْ». كأني رأيتُ على راحة يدي دماً. أردتُ أن أقول له: «دم؟!» لكنّني نمتُ.

... كأنّي أنام بلا غطاء، مزحوماً بأجساد النائمين. وكأنّ جسدي مُلصَق بأجساد الآخرين. سأفتح عينيّ. همستُ لنفسي.. تزحزحتُ، فأحسستُ أن ما يُلصقني بالآخرين يتكسّر بصوتٍ يشبه انْقصافَ آلاف عيدان القمح اليابسة تحت جسدٍ يتململ. فمي مغلق على صمغ بارد. وشفتاي مطبقتان على شعورٍ يملؤني رعباً بأنهما مدْروزتان بخيطٍ متينٍ، وأنّني عندما أفتحهما ستتمزقان. على مهلٍ، وبألمٍ، طويتُ ركبتي كما لو أنني أطوي غصناً يابساً يكاد ينْقصف.. ورأسي ينشقّ بصداع ينفض المُأ. مددتُ ساقي فجأة مُنتفضاً من صليلٍ مشى في العظم، فصدمتْ قدمي حاجزاً، والتمع نورٌ مُشِعٌّ فوق عيني مباشرة. رمشتُ مراتٍ حتى استطعتُ التحديق إلى الضوء النابع من زرٍّ صغيرٍ محاطٍ بسلسلة أرقام من الواحد إلى السبعة. ومع إحساسي بانطباق الحاجز الذي صدمَتْه قدمي ناسَ الضوءُ لحظاتٍ ثم انطفأ. أعدتُ طيّ ركبتي ثم قذفتُ قدمي، فانْزاح الحاجزُ وصدم في الجهة البعيدة شيئاً كأنه حائط، وعاد الزرُّ إلى بثّ نوره في عيني. كابوس. هو كابوس. تذكّرتُ أنني كنت سأقول له: «دم؟!». لفتُّ رقبتي المتصلبة بصعوبة إلى جهة، فرأيتُ وجهاً غريباً لرجل بشوارب كثيفةٍ عليها ندفُ ثلج، وبدا لي وجهُه تحت ذرّ الثلج مصبوغاً بالأزرق. كابوس. هو كابوس. وفي الجهة الأخرى كان هو ممدّداً إلى جانبي، وبقعٌ من بياضٍ لمّاع على وجهه، ودمٌ يابسٌ يتكتّل تحت لمعةِ ماءٍ متجمّدٍ عند صدغه. أردت أن أقول له: «دم؟!»، لكنّ إحساساً ما جعلني أقرّر أن أنهض، فانشقّ ما يلصقني بهم كما لو كان جاماً من بلّور تخرّه ماساتٌ عدة فينهار دفعةً واحدة. زحفتُ بمؤخّرتي على شيء له صوتُ انخماصِ الثلج تحت القدم. كابوس. هو كابوس. أنزلتُ رجليّ ولمستُ بهما أرضاً مبلّطة، ووقفتُ مترنّحاً بثقل رأسي، ولما التفتُّ تجلّى لي الكابوس بثلاثة رفوف، على كلّ رفٍّ رجالٌ من أعمار مختلفة. في الأول أرى أصابع الأقدام، وخلفها فتحات الأنوف التي تشبثتْ أشعارُها بقطراتٍ لمّاعةٍ من الجمد. على الرفّ الثاني آخرون تظهر أجسادُهم كلها، مُصْطفّين كأنما للتصوير. وعلى الثالث من الأسفل هو والرجل ذو الوجه الأزرق وبينهما موضعي الذي كنتُ فيه. كابوس. هو كابوس... الباب مواربٌ وعبره، بعيداً، تحت ضوءٍ ضعيفٍ تظهر أولى درجات دَرَجٍ صاعد. عند أوّل درجة لاحظتُ أنني أمشي حافياً، وقدميّ مزرقّة كوجه الرجل الذي كانت كتفُه تضغط على كتفي، وثيابي واقفة كأنها قماش شادر في صقيع. في الممر الدافئ، المكتظّ بالناس السائرين بصمتٍ في الاتجاهين، راحت ثيابي تنقط ماءً، وقدماي تطبعان على البلاط بَلَلاً، والغيومُ التي تنْبهر وهي تمرّ بي تزيد إحساسي بأنني أسير في حلم. بعيداً في نهاية الممر كانت الشمس في جام البلور الوسيع، أنْهض من السور بقدر قامة رجل يرفع يديه وينوض على رؤوس أصابعه، وقرصُها ما يزال يحمل حمرةً خفيفة. وشعري الذي كان متلبّداً صار سَبِلاً رطباً تنضح عند أطرافه قطراتُ ماءٍ... كأنّي لمحتُ ظهر أختي، وشعرَها المسدولَ على كتفيها، ووجهَ صغيرها الباكي يغيب ويظهر وهي تهزهزه ليسكت. أبعد من المرأة التي كأنها أختي ومن الطاولة التي يجلس خلفها طبيبٌ يافع يضع سمّاعته بإهمال على رقبته، كان ثمة مريضٌ يفتح فمه ويغلقه على أنينٍ وحشيٍّ غيرِ مسموع وهو يجذب فخذيه إلى بطنه ويدفن رأسه في صدره. كابوس. حتماً كابوس. وإلا لَما كان صراخ المريض وصراخُ ابن أختي مجردَ رسمٍ بلا

صوت... فجأةً، كما لو أنّ سدادةً طارت، دَخَلَ ضجيجُ الكلام والصراخ أذني. والتفتَتْ أختي من بين جمع الناس كأنما نبَّهها أحدٌ. بوجه معتادٍ على الكآبة والحزن قابلتْني، والتفتتْ كلُّ الوجوه إليّ. وجوهٌ لأصدقاء قدامى، ولأقارب لم أرهم منذ زمن بعيد، فيها تعبيرٌ واحدٌ يطفح انْشداهاً بمفاجأة كأنما تكمن خلف ظهري. كأنّ شيئاً يصعقهم مارّاً من خلالي، آتياً من ورائي، ذاهباً إلى عيونهم المفتوحة على وسعها في الدهشة. لو لم أكن في الحلم لَمَا انْجمع كلُّ هؤلاء في مكان واحد. ارتختْ يدُ أختي فهبط الطفلُ إلى فخذها وبدا معلّقاً بيدها كأنه سيسقط منها ما إنْ يتحرك أو تتحرك أصابعها. وبدأ وجهها ينْشحن بصدمة المفاجأة، وشفتاها ترتعشان بكلام عصيّ. كأنها قالت مرعوبةً: «أنتَ ميت». كانت لحظةً رهيبةً أن يعرِّفني صوتُها أو صوتُ الحلم بأنني ميت، وبأنّ هؤلاء الأصدقاء والأقارب حاضرون من أجل الجنازة. رأيتُ فمها يصرخ، بكل الشقاء الذي تعانيه، في وجهي: «عيبْ عليك.. وينْ رجولتك؟.. ما عاد عندي شيء أعطيك إياه.. خمس سنين وأنت ما تعرف الليل من النهار... وجهي ما عدتْ أعرف وينْ أودّيهْ... ما ظلْ حدا تعرفه ما له عليك دينْ.. منيْن أعطيك؟.. أنت أحقّ من أولادي؟!... أبيع أغْراض بيتي؟! أفتح أفْخاذي للناس؟! أكسب لك من لحمي لمشروبك؟! يا عيب الشومْ!! يا عيب الشومْ!!» وراحت تلطم وجهها، وفضاء البيت يملأه بكاءُ أطفالها الصامتُ بعيونهم التي تلاحق حركاتها المجنونة. بشعور المذْنِب انسحبتُ من أمامها، ونزلتُ الدرج وأنا أسمعها تهذي صارخة «أبيع عرضي؟!.. أجوّع أولادي؟!». وفي عمق الدرج كان صدى بكائها يفيض ويخرج من باب العمارة ليلاحقني نافذاً في سمعي كأنه يلتصق بي... سقط الطفل من يدها وناستْ بجسدها، وأجفانها تنْسدلُ على إغماءةٍ كالتي كانت تأتيها في طفولتها. رغبتُ في البكاء وفي ضمّ أختي إلى صدري، لكن إحساساً بحاجزٍ لا يُخترق، كالجدار، جعلني أقتنع تماماً أنني ميت...

كأني لفظت همساً في الوجوه المدهوشة: أنا ميت؟!.

الرقّة

من حكايات البغال

هزوان الوز

قال رئيس اللجنة بصوت عالٍ موجِّهاً كلامه إلى العاملين على آلات السَّحْب: لا تنسوا زيادة عشر أوراق، ودقِّقوا في الصفحة الأولى قبل وضع الأوراق في المغلَّف.

وأطلق أبو نبيه صيحته الدورية: بَدِلْ ماستر.

فعقّب أبو حسن: شباب! هَيْ امتحانات... الخَطْأة بِكَفْرة.

ثم توجَّه بكلامه نحو جاره أبي نبيه، العامِلِ مثله على آلة لِحام: رزق اللّه تلك الأيام، أتذكر؟.. لم تكن آلات اللِّحام هذه موجودة، ولا هذه المغلَّفات السوداء والبيضاء المصنوعة من النايلون، كانت عبارة عن مغلفات ورقية نُغْلقها بورق اللصق البنيّ.

قال أبو نبيه: وكيف لا أذكر! كنتَ أفضلَ وأسرعَ مَنْ يقوم بهذه العملية، كنا نلقبك بـ «الروبوت».

ـ الروبوت أصبح عاجزاً يا أبا نبيه، العمر له حقه، هي سنوات ثلاث ويصل القطار إلى محطة التقاعد.

ـ ما زلت شاباً يا أبا حسن.

ـ أيّ شباب، وهذا القلب المتعب؟ أجريتُ له عمليةً منذ أربع سنوات، ويومياً أتناول ما لا يقلّ عن ثماني حبّات من الدواء، ومع ذلك تنتابني أزمةٌ بين فترة وأخرى. صَدَقَ مَنْ قال إنّ الإنسان عندما يتجاوز عمرُه نمرةَ حذائه فإنه يدخل مرحلة البهدلة.

ـ طَوِّل بالك يا أبا حسن، انظرْ، غالبية العاملين على آلات السحب من الشباب، وحقِّ ربك عندي عزم أكثر منهم.

ثم توجَّه نحو العاملين على آلات السحب قائلاً بصوت عال: «هاتْ شغلْ... هاتْ شغلْ... هاتْ شغلْ وخذْ بَغْل...».

وأردف:

ـ شباب اليوم خروق، أُنظرْ، آلات السحب جميعُها إلكترونية، المطلوب فقط ضغطة زرّ، ومع ذلك لا تجد لدى أيٍّ منهم روحَ المبادرة، تمنيتُ ولو لمرة واحدة أن أشاهد أحدهم يُجري صيانة لآلته... وإذا حدث أيّ طارئ بسيط في الآلة ينادون: تعال يا أبا نبيه. وفي أكثر الأحيان تكون ورقة عالقة في الآلة، ولكنهم ليسوا على استعداد للقيام بهذه العملية البسيطة التي لا تستغرق أكثر من ثلاثين ثانية. أتذْكر آلات الرول الطباعية اليدوية التي كنا نعارك فيها ساعات طويلة، وكذلك أوراق الحرير؟ ورغم ذلك كنّا نطبع أسئلة امتحانات الشهادات العامة لكل طلاّب القُطر، وفي نهاية عملنا اليوميّ يكون الواحد منا وكأنه خارج للتوّ من بحيرة للحبر.

ـ لا تظلم الشباب يا أبا نبيه، الواحد منهم يقف خلف الآلة بمعدل ست عشرة ساعة عمل يومياً، بينما في تلك الأيام كنا نعمل من الساعة الثالثة وحتى الساعة العاشرة مساءً، ثم نعود إلى منازلنا لننام مع زوجاتنا وأطفالنا. نحن الآن مقطوعون عن العالم الخارجيّ، ولا يمكن أيّ شعاع من أشعة الشمس أن يخترق هذا القبو.

ـ هانَتْ يا أبا حسن... مضى ثلاثة عشر يوماً، وبقي سبعة وعشرون فقط.